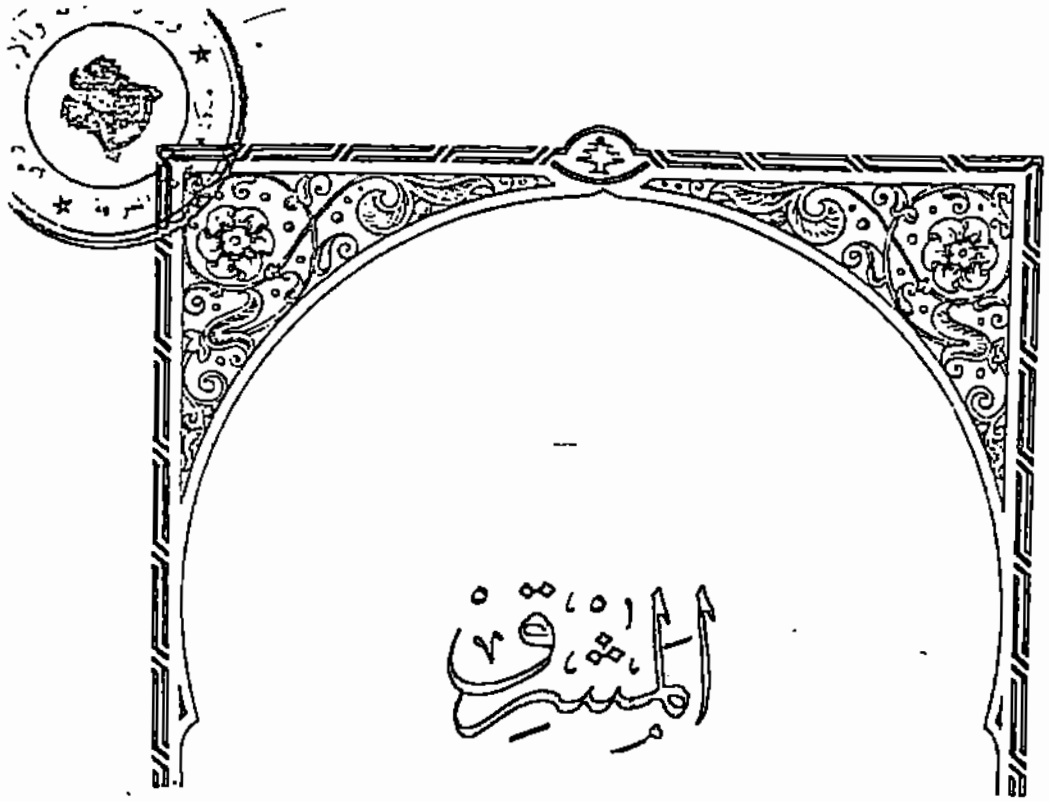

المشرق

السنة التاسعة والخمسون

آذار - نيسان ١٩٦٥

بولس السادس في سنة حبريته الاولى

بقلم الاب اغناطيوس عبده خليفه اليسوعي

تظل الكنيسة في ايام تاريخها علامة استفهام للذين لا يشاركونها ايمانها بالمسيح الإله ، وتظل سائرةً وراء المنتصر على الموت إلهها بين الاضطهادات المتنوعة،وفي طريق التواضع والانسحاق . فهي على الأرض جسم المسيح السري، ذلك الإله المتأنس الذي تألم ومات وقهر الموت بقيامته . ولن تكون وريثته في المجد قبل ان تتألم . هذا ما قاله بولس الرسول في رسالته الى اهل كولوسي (٢٤/١): « اني افرح الآن في الآلام من اجلكم وأتم ما ينقص من شدائد المسيح في جسمي لأجل جسده الذي هو الكنيسة » وما ردده في كتابته الى اهل غلاطية (١٧/٦) : « اني حامل في جسدي سمات الرب يسوع » وما قد ثبته في كلامه على الذي يعتمد انه « يموت مع المسيح ويقوم معه.» .

فاذا كانت الكنيسة جسم المصلوب السري فهي ايضاً الجسم الارضي

للمنتصر على الموت يُحييها الروح ويُنعيها : « اذ اننا جميعنا اعتمدنا بروح واحد لجسد واحد ... وجميعنا سُقينا روحاً واحداً » (١ كو ١٢/١٣) وبهذا نؤلف جميعنا جسماً واحداً . وهذا الجسم يتغذّى من القربان ، من ذلك الخبز السماوي النازل من عند الآب اذ ان « كأس البركة التي نباركها اليست هي شركة دم المسيح والخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح » (١ كو ١٠/١٦) . انما الكنيسة وان كانت جسم المسيح السري ، مقدّساً ومقدّساً فيظل فيها اعضاء مرضى واعضاء مائتة « ولذلك كثر فيكم المرضى والسقام » (١ كو ١١/٣٠) . والحالة هذه فان الكنيسة جسم المنتصر على الموت لا تعمل بكامل روحانيتها فالخطيئة والمرض والموت تثقّل هذا الجسم الذي ليس فيه مبدئياً علّة انما الاعضاء باقون في جسدهم الشهواني وفي الخطيئة .

وفيا ان هذه الكنيسة مستمرةٌ على الأرض تكمّل المسيح في عمله الخلاصي بين البشر . وتعطي النور والحقيقة لمن اراد ان يرتشد فانها بعد ان تكون ربطت مؤمنيها برباط الأسرار رباطاً شخصياً لا تنفصم عراه بالمسيح المخلّص تجمع كل اولئك الذين يريدون السير مع المسيح في المجتمع الذي اسسه على صخرة بطرس هامة الرسل تحت سلطة رجل اقامه الكلمة المتأنس رأساً وقائداً وراعياً يتكلم باسمه وينوه بكلام الخلاص الذي اعطاه للعالم يؤازره في ذلك الروح القدس ويمنعه عن الشطط كلما همّ في تثبيت ايمان الجماعة المسيحية وهديها كشعب الله المختار في طرق الحياة المثلى والشهادة .

تحار عقول الغير المؤمنين في ماهية ذلك الرجل الفاني وفي عظمة سلطته الروحية وامتداد رعايته . لقد كلّف بتوطيد ايمان اخوته في الرسالة وباعطاء « النور الحقيقي الذي ينير كل انسان آت الى العالم » (يو ١/٩) للذين يفتشون عن الحقيقة كاملة صافية . فمن هو ذلك الرجل ؟

في زمن تصاعدت فيه اصوات الالحاد والمادية القتّالة وكثرت الفلسفات الهدامة التي تطيح بكرامة الإنسان اذ تجعله محور حياته وتريد ان تُبعده عن الله ، تبدو الكنيسة صامدة صلدة لا تقوى عليها ابواب الجحيم ، كلما اشتدت عليها الاضطهادات جدّدت حياتها وعادت امارات وجهها تكلّم الدهر على إمارات المسيح بالذات . فما هي هذه الكنيسة في سرها العجيب ومن هو ذلك الرجل ، البابا ؟

فاذا ما ارتفعت اصوات الحروب وجلجلة الأسلحة وتوتّرت بين الشعوب امور السلطة والسيطرة ، رأيت الناس ينظرون الى ذلك الرجل يصغون الى كلامه ، وفيه خير ، وفيه طلب سلام واخوّة بين افراد الجنس البشري ، وفيه ان يساعد

القوي الضعيف وان لا يخاف الضعيف من القوي اذ هم ابناء أب واحد وهو الذي في السماء خالق الاكوان ومكوّن الانسانية . فذاك الرجل يحمل معه ، من يوم ان تسلّق السدة البطرسية ، سرّ هيبة لا تترك العالم في اللامبالاة ولا تجور على أحد في غطرسة بغيضة اذ يريد ان يتصل بكلامه بأبناء البشرية كلهم . وهي ايضاً تلك الدول الغير الكاثوليكية التي تعطي كلامه ميزة الشيوع في البشرية فتنظر اليه وتتحقق صدق عاطفته وفعالية اهتمامه بامور المسكونة في سلامها وراحتها وتقدمها . فعمّ تفتش هذه الشعوب كلها ؟ انتفتش عن رجل يؤمّن راحتها المادية وسلامها المادي في حيرتها المستمرة ، ام انها في اعماقها تفتش عن رجل يبشّر بالحقيقة والعدل والمحبة وفيه وبه تبدو الكنيسة التي رأسها في السماء ورجلاها على الارض معلمة وامّاً تهدي الشعوب وتجذبهم بصورة غير حسية بتلك القوى الداخلية التي هي منها والتي أُتمنت عليها . ومن عيّر الكنيسة بقائدها البابا عيّر ، ولا شك ، عن سلطة لا تمس . ولمَ يحاربها إن كانت له خيفة سافلة ؟ لمَ يحاربها لو لم تكن حاملة رسالة عالية لا يطيق حملها .

من هو البابا ؟ فما ان أعلن التئام المجمع المسكوني حتى هبت تلك الشعوب الارضية مع ما يجذب اهتمامها من تقنية وعلم ، من مادية وزمنيات من شهوات واسيال تنشر الخبر في المعمور كله حتى لا يغيب عن احد خبر هذا الحدث الشامل وكأني بالكنيسة صارت ملكاً للجميع يطلبون تجديدها وبواسطتها السلام للعالم بتلك المبادئ الصادقة التي توحّد الارادات وقلوب الجماعات . هذا هو البابا ذاك الذي يحمل على كرسي الرئاسة الروحية الاولى في العالم لطفاً وقوة ، محبةً وغيرةً لا حدّ لها مع يوحنا الثالث والعشرين او مع خلفه المالك سعيداً بولس السادس الذي ما ان ترك سلفه هذه الفانية حتى بدأت التكهنات تطلب من الذي سيعتلي العرش ان يكون خير خلف لخير سلف وأظهر العالم بهذا ان البابا يخصّه وانّ له عليه حقوقاً في خدمة المعمور . وما هذا الا التعبير الصحيح عن ان البابا هو ذبيحة في سبيل الكل وتقدمة للكل ، فهو للجميع ، اب الافراد والجماعات والعالم ينظر اليه نظرة أمل وتفاؤل . وهو يجيب تلك الآمال بانه يعيش على كرسي بطرس سلطة وحقيقةً ، وحضرةً أمّنها له المسيح الاله في وعوده ليطرس بالذات : « انت الصخرة وعلى هذه الصخرة سأبني كنيستي ... وسأكون معكم الى منتهى الدهر » . فقبل ان يصير الخبر فهو الكردينال الفلاني مع همومه واهتمامه . وبعد ان يصير بابا خبرًا اعظم لا تفرقة عنده ولا تفضيل : كله لابنائه مع مشاكلهم التي تنسيه مشاكله . الخبر يصير شخصاً آخر اذ ان هناك سرًا عجيباً يعمل فيه ليحسّنه وليُعتقه

من انانية الذات . فالتعب والسهر والعمل المستمر هناك وهناك والى اقصى الارض . يحمله كل ذلك الى تحسس تعب وسهر وعمل كل اولئك افرادًا وجماعات الذين يقومون بواجبهم المسيحي هنا في رومية وهناك في الرسالات البعيدة : هنا في الدروس وهناك في التقارب بين الاديان التي تعيش بينها الكنيسة . هنا في الادارات وهناك بين العلمانيين الذين صرنا الى يوم عملهم ونشاطهم الرسولي . ولذا فعمل بولس السادس تقليدي وجديد : جديد بروحه ومجدد التقليد بالذات وقد اعطاه المعلم الإلهي سلطة التفسير المعصوم لصالح الكنيسة جمعاء بين الاهوال والمصاعب والاضطرابات المتعددة التي تتقلب فيها شعوب اليوم . فلا تغيب الكلمات التي قالها في بيت لحم عندما كان يزور الأراضي المقدسة : « فليعلم العالم اننا نحبه واذا ما كان بغريب عن الكنيسة فان الكنيسة لا تشعر بانها غريبة عنه . لا يستطيع الانسان ، وان اراد ذلك ، أن يمحي الله من أفق حياته . وخاصة من تلك الآلام والعذابات التي تبلّل ايامه بالدموع ». فالبابا يُعلن كل يوم بمواجهته لجماهير من الشعب مختلفة الالوان والآراء والاميال والنزعات ان الكنيسة ليست بغريبة عن العالم انقاهم .

هذا هو البابا : خليفة بطرس ونائب المسيح الاله على الارض : هو الصخرة الصلدة : التي لا تتزحزح ، التي هي في اسس بنيان الكنيسة . ولقد استعمل يسوع صورًا ليبرهن عن اعماق افكاره فتكلم على المفاتيح ، مفاتيح الملكوت : والمفاتيح تعني السلطة ، كمال القدرة التي لا تتحقق على الارض بل يصل مفعولها الى السماء . وتكلم المسيح على الشبكة وعنى بها عظمة وهيبة الرسالة العظمى . « اجعلك صياد البشر » . واخيرًا صورة الراعي التي تدلنا على ان لنا معه للخلاص صلةً قوية ثابتة .

واذا زدنا على هذه الصور كلها صلاة المسيح على نية بطرس وحده : « صليت لأجلك كي لا ينقص ايمانك ... وانت ثبّت اخوتك » هذه هي أولية الحبر الاعظم في كنهها الاصيل وهي ليست لاستعباد الجماعية الرسولية التي نراها اليوم في الجماعية الاسقفية : انما هي لتدعم بقوتها الشاملة الاخوة الذين اقامهم المسيح رعاة لرعاية القطيع . وهذه القوة الشاملة تعني مسؤولية تستلهم الاله الانسان الذي اعطاها : وهي في خدمة توطيد ايمان من كلفه بهم على هذه الأرض . ولقد فاه الآباء القديسون بهذه الحقيقة فقال امبروسيوس : « حيث بطرس هناك الكنيسة » وزاد القديس لاون اذ قال : « بطرس لا يزال في الكنيسة بشخص خلفائه وإن كان احدهم لا يستحق هذه الوراثة العظيمة » . إنما كل منهم يجمع فيه لا وراثة الاخير من الاحبار الذين سبقوه ولكن تلك

التي من يطرس اليه تحمل سلسلة من الروحيات والوعي الرسولي والايمان الصافي الجريء الذي لا يهاب بشراً . هكذا كان يوحنا وهكذا بولس السادس واختيار اسمه عنوان القداسة والرسالة ؛ عنوان تقارب مسكوني مع الإخوة المنفصلين وغيرة متوقدة لخدمة الجميع ولمواجهة عالمنا مع ما فيه من جمال وشر ؛ مع ما فيه من حياة وموت كي يعطي المسيحيين المؤمنين ابناءه قوة ليكونوا مسيحيين عليهم امارات وجه المسيح في عالم تهترئ كل يوم اصوله ، ليقبلوا الانجيل كما هو لا يتزقون ما يريدون من صفحاته ليكونوا على هذه الغانية حجاجاً يسيرون دون ان يلتصقوا بمغرياتها ، لينفتحوا على اخوتهم اولئك الذين يعيشون في العالم دون انانية ولا أثرة ، ليعلموا ان حياتهم هي خميرة في العجين ووسيلة خلاص للجميع بعهدهم الذي اعطاهم ان يكونوا مع المسيح شخصاً واحداً .

I

من يوم ان تسنّم بولس السادس السدّة البطرسية وهو يعمل في ايقاظ الوعي العقلي عند الشعب المؤمن وعند سائر شعوب العالم . ففي خطاب القاه في الخامس من نيسان الماضي امام طلاب الجامعة الكاثوليكية الميلانية واساتذتها يفسّر لهم فيه انجيل ظهور المسيح الاله لتوما الرسول يقول لهم : « اتركونا نطلب اليكم ان تسمعوا ؛ ان تقبلوا ، ان تختبروا كلمة المسيح هذه : ان الايمان غبطة ... ليس الايمان قهر التفكير الشخصي ولا حاجزاً في طريق التفتيش العلمي ولا عبءً على الروحانية التي تريد ان تتكون في عصرنا ، ولكنه نور ؛ صوت اكتشاف يفتّح النفس ويعطي الحياة والعالم معنى ؛ الايمان بهجة العلم المطلق ؛ الايمان بهجة المعرفة ، معرفة الحقيقة ... »

هكذا دوماً عند بولس السادس ، فالايمان يطلب ان يُفهم من عقل بشري يركّز في الحياة وفي ثقافة زمن من الازمنة . هكذا كانت الكنيسة تفتش أن تطبق البشارة الالهية على عالم تعيش فيه . وفي المجمع اليوم نرى ونتحسّس ارادة الكنيسة هذه في خدمة العالم : هذا العالم المتفتّح الى الاعالي لولا تدخل العقلانية الانتقادية والمادية التاريخية لتُعيدا العالم إلى اختبار حسّي والى الانكماش على ذاته فاننا نتأكد من خلال فلسفة اجتماعية وطّدت مبادءها في مناطق واسعة ان تلك الجماهير لا تزال ترنو الى الإله الغير معروف . انما عندما تأتيهم الكنيسة برسالتها وبشارة المسيح تسمع اصواتاً متناقضة تتصاعد من كل جهة تضحك وتهزأ وتتحدّى طالبة العودة الى ذلك مرة اخرى .

ان تعليم الكنيسة في هذه الفترات الأخيرة يلحّ بالعودة الى الفضائل الطبيعية

التي ينشرها ويدافع عنها متى احدقت بها المخاوف وارادت الشهوات البشرية ان تطيح بها ، متى قام الظالم او التقني « العلمي » ليبدمها . وعندما تتكلم الكنيسة وتجد لتلك القيم اسساً كتابية نسمع اصواتاً مغايرة تردد : « نسمعك في آن آخر . » وكم اعتقد بعض الملحدين ان الكنيسة لن تتجدد وانها ستتنكك مع الحقيقة في مجرى التاريخ المتقلب الوجوه .

ان العقل والفكر البشري متى ابتعدا عن الايمان خسرا جناحيها وهبطا الى الارض ليكوّنا فلسفة ارضية تقوم مقام الدين وهما يعتقدان ان اكتشافات العلم مطلقة لن تتغير وان آفاق العلم نفسها لن تتوسّع لتحل محلّ ما نراه اليوم: اكتشافات جديدة توسّع المعرفة الحسية وهكذا الى اجيال . اما الحبر الاعظم عندما فسر انجيل عيد العنصرة قال : « ان الروح القدس هو الذي يهدي ويساند في التنقيش العقلي والاختباري لأن الحقيقة المطلقة لا تخاف من الحقيقة التي يتوصّل اليها الانسان بعقله » .

ومن لا يذكر ذلك الخطاب الآخر الذي فاه به البابا أمام الفنانين : يوم خميس الصعود ، في كنيسة السيكستين البهية اذ أولى الحبر الاعظم الفنانين دور الكاهن والوسيط : « إن خدمتنا هي الوعظ وهي ان نقرّب ونفهّم عالم الغير منظور ، عالم الروح : عالم الله ، وان نخلق نحوه حنان البشر وعاطفتهم ... وهذه الصنعة هي لكم ايضاً عندما تجعلون عالم الروح في متناول البشر ... » كان البابا ولا شك يعود في كلامه الى الوحي الديني في الفنّ . انما يطبّق كلامه على كل صورة فنية التي هي دوماً وسيلة حقيقة مرئية ، ومفهومة في كنهها ومعطاة إلى الغير . وفي هذا ايضاً إن الحساسية هي بحاجة للغذاء الايماني : « ... وانتم ايضاً تفتشون عن هذا عالم اللامنظور وتجدون ان وطنه هو دوماً الايمان والصلاة ايضاً والدين ... » « ... واذا ما فتشنا حقيقة عن المسيح حيث هو في السماء : نجده حاراً في نفوسنا : فالله المنزّه صار داخلنا : صار الصديق الباطني : صار المعلم الروحاني ... »

فليس فن بدون ايمان . ولربما فسّرنا ما نراه في الفن القائم في ايامنا هذه . لا يدخل اطواره الا من تدرّب وفهم . فيه روح ، فيه شيء يعلو الانسان نفسه ويبدو بصدق واستقامة ، هو الايمان بالاله الغير معروف الذي ينتظر ان يبدو بوضوح اكبر .

في هذه الفترة الأخيرة لقد قيل ان ما هو حسن في الفن مصدره «علماني» . انما الماضي يدلّ على ان هذا الأحسن مصدره الإيمان الذي يقبله الانسان ويفهمه .

ان نسيان الايمان ، ان اللامبالاة تحجّر النفس والثقافة والفنّ وتشطر الشخص شطرين .

ليس للكنيسة ان تهتم مباشرة بالمدنية والثقافة . ليست هذه رسالتها . ولكن التقدم العقلي والتمدن ونمو الفكر والفن انما كل هذا جزء لا يتجزأ مما وعده المسيح للذين ينتشون عن ملكوت الله . فان تعليم بولس السادس الذي يلح على الايمان وعلى اولية الايمان في الحياة البشرية يريد ان يردد هذا : طوبى لمن ينتش عن ملكوت الله فله ان يدخل في كل تطوّر خيّر وامان .

II

في ذلك المساء الخارّ، في عظمة ساحة مارّ بطرس في رومية وفي ابهة الطقوس الكنسية ، في ٣٠ حزيران من السنة الماضية كانت كلمة بولس عن الكنيسة ووحدتها مؤثرة للغاية . « اننا في هذا المضمار نقبل بعاطفة وتأثر وراثة يوحنا الثالث والعشرين الذي اذا استلهم الروح القدس ، اعطى حياة لأمل عظيم . وواجبنا ان لا نخيّب هذه الآمال ... فان ارادتنا ، وقد حملنا سلاح الحقيقة والمحبة ، في ان نتابع في المكالمة التي بدأت ، كل ما في وسعنا ان نصنع » .

فبعد مضي سنة من هذا الاعلان نستطيع ان نشكر المسيح على ان المكالمة التي بدأت دامت وان العمل الذي قام به السلفاء يكتمل تحت انظارنا . وما ان سمع مراقبو الكنائس الغير الكاثوليكية كلام بولس السادس في ذلك المساء التاريخي حتى همّت بالعودة الى جلسة المجمع المسكوني الآتية وحتى اتى غيرهم من كنائس غيرها الى ان اعلن بدء تلك الجلسة فوجّه البابا كلامه الى المراقبين الحاضرين وقد اجتمعوا حول المذبح قائلاً لهم : « اننا نرسل بواسطتكم سلامنا الابوي والأخوي لتلك المجموعات الكنسية المسيحية التي تمثلون . فصوتنا يرجف ، وقلبنا يرفّ لان قربكم منا اليوم هو تعزيتنا العزيزة والتي تفوق كل كلام واملنا الصادق كما وان فراق الكنائس تلك هو ألمنا المضني . فاذا كان هناك ما يعود لنا من خطيئة في ذلك الفراق فاننا نطلب الى الله بتواضع كلي ان يغفر ما بدا والى الاخوة الاحباء الصفحّ اذا ما كانوا أهينوا من قبلنا . ونحن مستعدون بما يتعلق بنا ان نسامح الإهانات التي قيلت ضد الكنيسة الكاثوليكية وان ننسى الألم الذي كان ألمها في سلسلة النزاعات ونرفع الى الاب السماوي كلامنا هذا ونطلب اليه ان يجمعنا من جديد في اخوة صادقة حقيقية » .

وفي السابع عشر من تشرين الاول عندما استقبل البابا بولس المراقبين

في مكتبته الخاصة : تكلم اول من تكلم في ذلك الاجتماع الكردينال بيا رئيس سكرتيرية اتحاد المؤمنين وبعده حضرة الاستاذ سكيسجارد رئيس الوفد اللوثيري وبعده جاوب الاب الأقدس فقال : « تقارب ومقابلة وسلام ومعرفة ومكالمة : فلا اسهل ولا احلى .. انما هنا نرى اكثر من ذلك : ان نسمع بعضنا البعض وبعد السنين العديدة التي فرّقت : بعد جدالات مؤلمة . ان نبدأ من جديد محبة صافية . صلاة واعية : هذا ما يجعل هذه المواجهة تاريخية لا يُمحى ذكرها . اذ هي ملأى بالفائدة » .

وبعد ذلك كان المراقبون في كنيسة مار بطرس يصغون الى المجادلة حول ما هيأه المجمع للبحث عن الوحدة المسيحية .

انما كانت ارادة البابا ان يشارك في تلك المكالمة الاخوية الشعب المسيحي بكامله . فسُمح لاحد المستمعين العلمانيين وهو جان جيتون ان يتكلم امام البابا وهيئة المجمع بكاملها في اليوم الثالث من كانون الاول الماضي ليشرح ما هو الروح المسكوني عند كل كاثوليكي . وفي اليوم التالي تكلم البابا واعلن عن حجته الى الاراضي المقدسة . وبهذا الاعلان تفتّحت الآفاق المسكونية وزادت وسائل المكالمة الاخوية بين اخوة فصلتهم اجيال واجيال . فامّ رومية استقبل تياتير موفداً من البطريرك المسكوني وكان يبدو اذاك للجميع ان هذا الاخير سيأتي الاراضي المقدسة ليقابل الحبر الاعظم . وهناك حوادث عديدة هي في معرفة الكلّ تراكمت ايام الحجة المباركة : الى ان فاه البابا بتلك الكلمات الطيبة في بيت لحم : من الآن فصاعداً انه لمن الواضح للجميع ان مشكل الوحدة لا يستطيع احد ان يجهله ؛ اليوم ارادة المسيح تقتضينا ان نعطي لكل مسيحي ؛ بحكمة ومحبة ؛ فائدة وحدة الكنيسة المطلقة . » وهكذا كانت المكالمة التي ترسخت ايام المجمع لا تزال قائمة ومن ظواهرها ارسال بعثة باباوية لحضور الحفلة التكريمية التي اقيمت في موسكو على شرف صاحب اليوبيل البطريرك الكسي ؛ زيارة البطريرك المسكوني ؛ زيارة مجمع الكنائس في جنيف ؛ زيارة رئيس اساقفة كانتربري إلى ما هنالك من الزيارات . ولمّ لا نذكر تلك الرسائل التي ذهبت الى القسطنطينية تحمل بشرى القيامة وتعيد الى الحياة تقليداً كنسياً كان به رؤساء الكنائس المحلية تتراسل مع البطاركة للتهنئة في الاعياد الكبيرة . لمّ لا نذكر ايضاً ذلك الخطاب الذي به اعلن البابا عن ارادته السنية باعادة رأس القديس أندراوس الى باتراس وفي ذلك ما فيه من قبّل الحبر الاعظم من احترام الكنيسة الارثوذكسية ومن محبة اخوية صادقة أمينة ، « لكي تزهو كما قال البابا ، أخوة بطرس واندراوس في وحدة الايمان والمحبة في الكنيسة المقدسة التي اسّساها » .

III

من البوادر الطيبة التي قام بها البابا بولس تكوين سكرتيرية للاتصال بالاديان غير المسيحية . فمن آخر ايلول ١٩٦٣ الى افتتاح جلسة المجمع المسكوني التالية اظهر ، في ظروف مختلفة ومتعددة ، ارادته العالية تلك ، فتكلم عليها في كتاب ارسله الى الكردينال تيسران عميد المجمع الكردينالي وفي خطاب فاه به امام خمسة آلاف اكليريكي من مختلف المدارس الرومانية . فكانت هذه الفكرة تراوده بلا انقطاع وكانت قد اختمرت في عقله اذ انه يريد ان يطلع البشر كلهم على ماهية الكنيسة في شمولها . فان الكنيسة تلك التي اسسها المسيح لن تصير شاملة عملياً الم يدخلها البشر كلهم او الم تصر لهم الامكانية في دخولها.

فالحبر الاعظم في خطاب قاله يوم العنصرة جدد حزمه على ان تكون الكنيسة كاثوليكية شاملة عملياً اذ اوضح : « أنقول لكم ان ضرورة الجواب على واجب الكنيسة ان تكون شاملة يهز المؤمنين هزاً . فانظروا الى خدمة الاكليروس والعلمانيين اليوم ؛ انظروا الى الارساليات ، انظروا الى المجمع المسكوني . انظروا الى الاهتمام الذي يدفع بالكنيسة ان تقوم باحترام وصدق بمكالمة النفوس كلها ، بمكالمة اشكال الحياة اليوم كلها ، بمكالمة المجتمعات المختلفة الاجتماعية والسياسية كلها التي تقبلها في صدق مطلق وفي انسانية حقيقية . انظروا الى الدروس التي تقوم بها الكنيسة لتتقرب الى الاخوة المسيحيين المنفصلين عنها . انظروا الى الجهاد الذي تعمله لتتقرب ولو حسب القيم الطبيعية فقط ، الى الذين يخصون الاديان الاخرى » .

وبعد ان دل على وسائل الرسالة اليوم التي تعمل في مناطق متعددة لتحقيق شمول الكنيسة ، يبدو الحبر الاعظم مصمم النية على ان يعلو على كل هذا ليثبت نهائياً متابلة اوسع ، على الصعيد الطبيعي فقط ، مع المليار والنصف من البشر التي لم يمر عليها بعد روح الانجيل . واردف قائلاً : « واننا نبشركم بما سيكون له قوة العنصرة وقيمتها : اننا سنؤسس هنا في رومية سكرتيرية تعنى بشؤون الغير مسيحيين » .

فهؤلاء اخوة لنا في البشرية نحبهم مثل ما نحب نفسنا : خلقهم الله نفسه ووضع في قلبهم الشريعة الطبيعية التي توحد بين ابناء البشر . وما في هذا التقارب من جدل او من دفاع عن النفس . فاننا ، يقول البابا ، عارفون بان الله اعطانا مجاناً ما هو لنا ولذا فاننا نواجه الاخوة كالند للند بتواضع كلي بصدق ومحبة لا تفتش الا عن تعارف متبادل لتكتشف سوية كنز التمدن

والتدبّن في الشعوب قاطبة . وهذا التقارب ليُفضي الى تفاهم متبادل، الى عجلة في المساعدة الاخوية والى الدفاع ضد كل ما يهب على قيم التمدن البشري من اعاصير .

وهذا التكاتف لن يكون فقط مع الشعوب الغير مسيحية ولكن مع البلاد العظيمة التي يقطنونها بدون استثناء وبدون ان نتأثر من موقفهم القائم اليوم: اذ كلهم قريب لنا وحسب قول رسول الامم : « خير الجميع علينا ان نضحي بانفسنا » .

IV

بعد ان قدم مجمع الكرادلة خضوعهم المثلث للحبر الجديد بولس في ٢٢ حزيران ١٩٦٣ في الكنيسة السيكستينية وجه لهم هذه الكلمات : « تمر على العالم كله كشعلة ايمان ومحبة عظيمة تلهب العالم كله وتطلب طرق التكاتف المتبادل وتفيض على البشرية جمعاء غزارة نعم الحية : قوة الله بالذات التي بدونها لا قداسة ولا صموداً ولا صحة ».

لا تبادل ولا تكاتف كلامي في أن يرثي البابا احوال العالم دون ان تساعد الكنيسة هذا العالم المتألم الذي يطلب دواءً شافياً امناً . وها كم قطعة من خطاب القاه في الكهنة الذين اشتركوا في مؤتمر التجديد الراعوي في ٦ ايلول ١٩٦٣ : « لا نفكّر بان اهتمام الكنيسة الراعوي الذي سنته لها كبرنامج عمل والذي يأخذ باهتمامها الكلي وبعطفها المتزايد لا يعني تغييراً في الحكم على اضاليل منتشرة في مجتمعنا اليوم والتي رذلتها الكنيسة مرات كالشيوعية الملحدة مثلاً : فاذا ما فتشت الكنيسة عن دواء ناجع لوباء مميت فلا يعني هذا تغيير التفكير على هذه الاوباء ولكن يعني هذا ان الكنيسة تريد ان تحارب تلك الأضاليل نظرياً وعملياً : يعني انها تريد استعمال الدواء ضد الداء : يعني انها تريد بعد ان تحرمها عقائدياً ان تحيطها بمحبة خلاصية » .

فبأي طريق تتقرب الكنيسة من العالم؟ بادئ ذي بدء بتقوية روحها وبوضع قواها الغير المحدودة في سبيل ربح النفوس . ففي التاسع والعشرين من ايلول سنة ١٩٦٣ بينا كان قداسة البابا يفتتح الجلسة الثانية للمجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني قال : « حدث فريد : الكنيسة اليوم تفتش عن ان تحيي حيويتها الداخلية بروح السيد المسيح : تتميز عن المجتمع المدني الذي فيه تعيش وفي الوقت عينه تقول عن نفسها انها الخميرة المحيية والوسيلة الخلاصية للعالم نفسه . وهي تدعم دعوة الإرسالية بجعل البشرية جمعاء : في اي موقف كانت ، موضوع رسالتها التبشيرية الفائقة».

وفي ختام تلك الجلسة الثانية في الرابع من كانون الاول فتح البابا قلبه للاساقفة ومن خلالهم لكل المخلّصين بدم المسيح فقال: « قبل ان يجادل هذا الحفل الكريم مشاكل الرسالة الحديثة اننا نعلم ماذا ستكون الحلول لتلك المشاكل. ان تعليم الكنيسة ثريّ وكله نور ؛ وأن حياة اخوتنا القديسين تدلنا على الطريق ؛ الا نستطيع من الآن ، بعد عودتنا من هذا المجمع ، ان نحيي قوتنا الراعوية بان نحمل الى ابنائنا والى من يهمنا امرهم كلام الارشاد والتوة ؟ الا نستطيع من الآن ولكي نهيئ الجلسة المقبلة ، ان نعطي حياتنا الباطنية قوة وميلاً لسماع كلام الله واعياً صميماً ؟ ألا نستطيع ان نحمل لاكليروسنا بشارة الحرارة والمحبة ؟ وللعلمانيين ملاماً يشجعهم ويوليهم الثقة ؟ وللشبيبة دعوة تجعلهم يصمدون ؟ وللمفكرين شعاع الحقيقة ؟ ولعالم العمل بشارة الامل والعطف ؟ وللفقراء الطوبى الاولى التي وجهها السيد المسيح : طوبى للساكين بالروح»؟

وبعد ثلاثة اسابيع وجه قداسته خطاب الميلاد فيه تحليل واف لأحوال البشر لحيرته وعدم كفاءة الحياة الدنيا وصرخة مدوية بالأمل الواسع : « وحدة النفوس هي اليوم حاجتنا الكبرى . الثقافة التي تقدّم لهذه الحاجة لا تكفيها ، ولكنها تزعجها لكثرة الافكار التي توزعها دوماً في المجتمع ؛ فالبشر تنقصهم وحدة في مبادئهم في افكارهم في مفهوم الحياة والعالم . وطالما هم منقسمون على بعضهم يجهلون بعضهم ، يبغضون بعضهم يحاربون بعضهم . وبهذا نرى قيمة العقيدة في حياة البشر . ولذا نرى عظمة حالنا في مجيء المسيح إلى العالم . انّى ليقيم صلةً واحدة او شاملة بين البشر والله ابيهم السماوي . وهذه الصلة الدينية هي اساس الوحدة بين البشر ، اساس خصب حتى في يقظتهم الشخصية فان السلام الاجتماعي الحقيقي يولد من الوحدة الدينية المسيحية . هي تلك الوحدة التي بدأت مع المسيح في التفكير وفي التاريخ ، نود ان تكون ما نتمنّاه للسلام ووفق ومحبة وتفاهم وحبور الذين لهم الارادة الصالحة » .

وفي نهاية المطاف ، من بيت لحم صوت البابا دوّى في المعمور حاملاً ذكريات تلك المغارة حيث بدأت حجة ابن الله الى الارض ومنها شعّت عطايا الله وبركاته : شعت انوار مثل المسيح وعظمته وسيطرته المطلقة على العالم المخلّص بدمه : « نريد يادئ ذي بدء ان نكون حاضرين في هذا العالم الذي نعيش فيه. نحن ممثلو وناشرو الدين المسيحي . لنا ملء التأكيد اننا ننشر امراً هو من الله، نحن تلاميذ ، رسل ، مرسلو يسوع ابن الله وابن مريم ، المسيح. نحن مكمّلو رسالته ، حاملو بشارته ، رسل عقيدته ، خدام دينه ، ولنا على اعمالنا وخلاصنا مصادقة الحية . وليس لنا الا ان نبشر بايماننا . لا نطلب شيئاً سوى الحرية في

ان نعلن وان نقدم لمن يريده بحرية مطلقة هذا الايمان وهذا الدين، تلك الصلة التي اقامها بين الله والبشر، سيدنا يسوع المسيح .

ولنا امر آخر نطلب الى العالم ان ينظر اليه بصدق : الا وهو غاية رسالتنا المباشرة : وهي هذه : إرادتنا ان نخدم العالم : ان نساعده في خيره وفي خلاصه. ونظن ان الخلاص الذي نقدمه له هو ضروري .

كلامنا هذا يحتوي على امور كثيرة غير ما قلناه : ننظر الى العالم بملء العطف والتفهم . اذا كان العالم يشعر بنفسه غريباً عن الدين المسيحي فالدين المسيحي لا يشعر بانه غريب عن العالم. ايا كان العالم واية كانت مظاهره . وليعلم العالم انه مقدَّر منا ومحبوب ممن يمثل وينشر الدين المسيحي محبةً عالية لا حد لها . والمحبة هي التي يضعها ايماننا في قلب الكنيسة تلك التي تخدم بواسطة محبة الله العظمى والعجيبة نحو البشر» .

ولسنا هنا في عرض مبادئ . فاما هذه المبادئ في الحياة اليومية تطبّق لحاجات مختلفة . وقال البابا في الثامن من حزيران ١٩٦٣ لممثلي الوحدة المسيحية «أنتم ممثلو الحياة الحديثة بالذات التي هي معجونة بالحدث التجاري ويروقنا ان نرى فيكم تطويراً للمقدرات البشرية التي توسعت في مداركم وصارت مقدرات هائلة واوضحت الفكر الالهي على وجه الانسان واكتشفت اثر التفكير المنزه في عالم مفتوح لمغامرات جديدة وسيطرات جديدة. والخلل الذي احتللتموه في اطار الحياة اليوم عظيم دقيق ووجيه . ونحن كمن يرى بنظرة وضعية الحقيقة التاريخية والاجتماعية التي تحيط بنا : نعترف باهميتكم وبقدر ما يمكننا الامر نعترف لكم بالجميل ونفرح لكم ونشجعكم. وكلامنا هنا تعبير عن موقف الكنيسة تجاه عالمنا : موقف انتباه وتفهم واعجاب وصداقة » .

فالبابا بولس قبل ان يعتلي السدة البطرسية كان معاوناً قيّماً لبيوس الثاني عشر وليوحنا الثالث والعشرين . وعمل حقاً ايضاً في الحقل الرسولي . فكم كان الله يعمل فيه سرًّا ليهيئه لجمع المؤمنين بالمسيح ؛ لجعل الكنيسة حاضرة دوماً في المجتمع وكان يساعد خلفيه دون ان يفكر يوماً بانه سيكون باسم الله مفسّر كل ذلك للعالم .

فالمكالمة بين البابا والعالم ليست ممكنة فحسب ولكنها بدأت . ان المسيح السيد يظهر من الانبياء الى الرسل : وبينما كان الاولون يقولون : عبدك يسمعك؛ يقول الرسل بلسان وقلب بطرس : «عندك كلام الحياة الابدية » .

من آن ان صعد البابا بولس السدة البطرسية ظهرت ثقته الغالية في العمل الكاثوليكي كوسيلة فعّالة لتُعطي العلمانيين مسؤولية في الكنيسة وكآلة للعمل الراعوي . ولقد كان هو بالذات المعاون الاكبر لفرع حيوي للعمل الكاثوليكي الايطالي ألا وهو الفرع الجامعي برفقة رئيس تفرّد بالصفات العالية ايجينو ريجتّي . ولم يترك اهتمامه بهذا الفرع حتّى عندما تحمل مسؤولية معاون في سكرتيرية الدولة الفاتيكانية مع بيوس الحادي عشر اولا وبعده مع بيوس الثاني عشر . وله يعود اهتمام هذا الاخير بتثبيت قوانين العمل الكاثوليكي سنة ١٩٤٦ . ولا ننسى خطابه القيّم في مؤتمر العلمانيين العالمي الاول . وبينا هو رئيس اساقفة ميلانو كان يعلن انه يريد ان يجعل من رسالة العلمانيين وخاصة من العمل الكاثوليكي نقطة محور في برنامجه الراعوي بتنظيم الهيئات ، بالحث على الاضطلاع بالبادرات وباتباع مثله العالية . ولم ينس البابا في اول كلمة قالها بعد انتخابه ليخلف يوحنا الراحل ان يحيّي « رفاقاً في العمل الكاثوليكي الذين يساعدون السلطة الكنسية » (٢٢ حزيران ١٩٦٣) .

فبعد بضعة ايام من تتويجه ، في الرابع من تموز ١٩٦٣ استقبل بولس السادس مساعدي الشبيبة الايطالية للعمل الكاثوليكي وقال لهم ثقته ومحبته : « نريد ان نعتقد بانكم تعلمون كلكم مقدار محبتنا للشبيبة في أطوار عمرها كلها ، في مظاهرها كلها ، في مشاكلها كلها ، وكيف كنا دوماً نحث شبيبتنا الايطالية التي عليها ان تفتخر بصلتها بالعمل الكاثوليكي . نحن كنا منها في سنينا الاولى وتبعنا اطوارها لمدة خمسين سنة وعشنا ساعاتها الفرحة ومأساتها وعرفنا رؤساءها ومعاونيها ، رفاقها واصحابها العديدين . وساعدنا حسب امكاننا ازدهارها . تأملنا روحها وشدّدنا تنظيمها ودرسنا وقدرنا طرقها ونتائجها الثرية . وعملنا الرعوي قوانا في ثقتنا وعطفنا نحو هذه الجهات كلها وأعطانا اختباراً ، فرحاً ، آمالا لن ننساها » .

في اول ايلول سنة ١٩٦٣ بينما كان يخطب البابا في فراسكاتي في عيد القديس منصور بلّوتّي قال : يجب على العلمانيين ان يصلوا الى اليقين التالي بانهم ليسوا فقط تمديداً ليدي الكاهن اللتين لا تصلان الى كل مناطق الحياة ولكن يقينهم مؤسس على امور اعمق واساسية اكثر : اي على انهم مسيحيون . فالمسيحي ليس باستطاعته ان يكون عنصراً سلبياً وايجابياً وخصماً للتيار الروحاني الذي يضعه الدين المسيحي في النفوس . وبينا السلطة الدينية كانت خصّت بنفسها مسؤولية واتمام العمل المقدس والتبشيري ، فهي اليوم تدعو العلماني الى مساعدتها في عمل التبشير . فهلمّوا ايها المؤمنون لمساعدة الكنيسة » .

الى ان كلّم البابا العلمانيين الجامعيين في الثالث من كانون الثاني سنة ١٩٦٤ فقال لهم انهم الجسر بين المجتمع الزمني والمجتمع الكنسي يحملون الى هذا الاخير اختبار العالم والى العالم شهادة الايمان .

...

واذا تكلمنا عن حجة البابا الى الاراضي المقدسة رأينا ان اللقاء المنتظر بين الحاج خليفة بطرس على الارض والشيخ الجليل بطريرك القسطنطينية هو النقطة المنعمة حبوراً وصلاةً وندامة ومحبة . ذلك اللقاء الذي ينبينا عن شيء من محبة المسيح الاله لابناء البشر .

وكم من الكلمات الطيبات قالها البابا في السلام والاخوة وثروة هذا الشرق المبارك . ان كل ذلك الا التعبير الصافي عما يكنّه قلبه الكبير من خير للعالم واخوة للمسيحيين . ولن نذكر شيئاً من تلك الخطب وهي محفوظة في كل ما نشر حول الحجة المباركة .

...

هناك قمم تنبي عن الروح . وعلى قمة الفاتيكان رجل ، من ابناء البشر يصغي الى همسات البشر ويصعدها صلاة الى الله ويعطي بني الانسان المبادئ الواضحة الصحيحة ويحمل اليهم شعاعات الايمان ونور المحبة .